أجنحة المدافع المصريّة[1]

اسْتَجْنِحي[2] يا مَدافعَ مصرَ ! وطيري ، إنَّ المجدَ يطلبُ منا إنسانَهُ البرْقيَّ .

لقد مَدَّتْ لغةُ القوّة في هذا العصر مَدَّها حتّى أصبح الطَّيَرانُ بعض معاني المشْي ، ولم يَعد العالَمُ يدري كيف تكون الصُّورةُ الأخيرةُ الَّتي يستقرُّ فيها معنى إنسانِه .

فَلْتَتَمَجَّدْ مصرُ بإنسانِها البَرقيِّ ؛ الَّذي تَخرجُ النَّارُ بيده من أعْراضِ السَّحاب ، وتُفَرقِعُ في أصابِعِه هَزَّاتُ الرَّعد ، ويجعلُ في قُبَّة السَّماءِ صَلْصَلَةً ، وجَلْجَلَةً ، ويحمل الاسمَ المصريَّ إلى مُعَلَّقِ النَّجم ، فيضعُ له هناك التَّعريف الناريَّ ؛ الذي وضعته الدُّول العظمى لأسمائها .

ولتتمجدْ مصرُ بإنسانها البرقيِّ ، الَّذي يُشْعِرها حقيقةَ العلوِّ العالي ، والعُمقِ العميق ، والسَّعَةِ ؛ التي لا تُحدُّ ؛ ويزِيدُ في معاني أحيائنا معنىً جديداً لأحياءِ السُّحُب ، وفي معاني أمواتنا معنًى جديداً لموتَى الكواكب .

إنسانٌ برقيٌّ يتمِّمُ بشجاعته في السماء بُطولةَ فلأَجِنا الإنسانِ الشَّمسيِّ في الأرض ، ويعلو بكبرياءِ مصرَ في ذِرْوة العالَم ، فتظهر طيَّاراتُها العظيمةُ قدرةً في الجوِّ ، كما ظهرت آثارُها العظيمةُ قدرةً في الثَّرى .

إنَّها مصر ، مصرُ القادرةُ ؛ الَّتي سَحَرت القِدَم بقوَّتها ، وفنِّها ، فَبَقِيَ فيها على حاله ، وجلالته ، وانهزم الدَّهرُ عنهُ ، كأنَّه قوةٌ على قوة الزَّمنِ نفسِها .

فاستَجْنِحي يا مدافعَ مصر ، وطيري . إنَّ المجد يطلب منَّا إنسانَه البرقيَّ .

* * *

(١) كُتبت في احتراق أول طيارة حربية مصرية في قدومها إلى مصر من أوربة ، وقد احترق فيها الشهيدان (حجَّاج ودوس) ، وذلك في شهر ديسمبر سنة (١٩٣٣) . (ع) .

(٢) أي : اتخذي الأجنحة ، ولم تأتِ الكلمة في اللغة بهذا المعنى ، ولكنَّا استعملناها فيه قياساً على كلامهم . (ع) .

ولمَا فُتح السِّجلُّ ذاتَ صباحٍ لتكتبَ مصرُ أسماء الفَوْج الأوَّل من نُسُورها الحربيِّين ، صاح مجدُها الخالدُ من أعماق التاريخ :

« أضْرِمي الشُّعلة الآدميَّةَ الأولى يا مصر! وافتحي القبرَ الجويَّ الأول ، وألحِدي فيه من عنصرَيك المسلمين والأقباط ، وضَعي الحياةَ في أساسِ الحياة ، واستقبلي عصرَك الجديدَ بأذانِ المسجد ودقِّ الناقوس ليبارِكَهُ الله ، ولْيتلقَّ الشَّعبُ أولَ طيَّاريه بقلوب فيها رُوحُ المعركةِ ، وأكبادٍ عرفت مَسَّ النَّار ؛ ولا ينظرَنَّ إلى طياراته الأُوَل إلا بعد أن ينظر النَّعشين ، فيرى مجدَ الموت في سبيل الوطن ، فتسطعَ نظراتُه ببريق الكبرياء ، ولَمعةِ العزيمة ، وشُعاعِ الإيمان ؛ ويأتَلِقَ فيها النُّورُ السَّماويُّ ؛ الذي يجعلُ النَّاسَ في بعض ساعاتهم كواكب ، نورُ صلاةِ الشَّعب على موتاه الشُّهداء » .

واستجاب القَدرُ لصوت المجد ، فالْتجَّ[1] الظَّلامُ في وَضَح الصُّبْح ، وانطفأ سِراجُ النَّهار في قبَّة الفلك ، وأطْبَقَتْ نواحي الجوِّ إطباقَ ليلةٍ تَساقَطَتْ أركانُها ، وأقبل الضَّبابُ يَعترِضُ اعتراضَ جَبَلٍ عائم يَتَذَبْذَبُ في بحر ، واستأرَضَ السَّحابُ فتَخلَّى عن طبيعته السَّماوية الرَّقيقة ، وتذامرَتِ العناصرُ على القتال ، يَحُضُّ بعضها بعضاً ، وتغشَّت السَّماءُ بوجه الموتِ : كلَّحَ ، فارْبَدَّ ، وانتفَخَ ، وتكسَّرَتْ فيه الغُضونُ ، كلُّ غَضَنٍ كِسْفَةُ ظلامٍ ، وعاد أوسعُ شيءٍ أضيقَ شيء ، فكان الفضاء كصدر المحتَضِر : ليس معه إلا عمْرُ ساعةٍ وأنفاسُها .

وابْتَدَرَتْ إلى مجد الموت الطيَّارةُ المصريَّةُ الأولى ، وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباها الموتُ ، فذهبتْ فانتحرتْ أسفاً وتردَّتْ متحطِّمةً ، وانسلَّ الرَّجلان من مخالب الرَّدى ، وكانا في الطيارة كورقتين من النَّبْت في فَم جَرادةٍ همَّتْ تَقضِمُهما . . .

وتَسْتَبِقُ الثانية فإذا فيها وَديعة الكرم من عُنْصُرَي مصرَ : « حجَّاج ودوس »[2] وكان سرّاً من أسرار مصر اجتماعُهما في مَداحِضِ الغَمام ، ومزالقِه ، ليكونا هديةَ

(١) « التج » اسودَّ .

(٢) هما فؤاد حجاج ، وشهدي دوس ؛ وكان في الطيارة الأخرى التي تحطمت المستر بليت ، والمستر سميث . (ع) .

مصرَ الأولى إلى مجدها الحربيِّ ، ثُمَّ ليكونا هديةَ المجدِ إلى إحساس هذا الشَّعب يُحِسُّ منهما العالَم المنطوِيَ له في مستقبل النَّصر .

واعتسَفَتْ[١] طيارة الشَّهيدين طريقَ الفَناء ، ومتَاهَةَ الحياة ، فذهبتْ عنها مَعارفُ الأرض ، وعُمِّيَتْ عليها معالِمُ السَّماء ، وخرجتْ من تصريف أيدي البطَلين إلى تصريفِ أجَلهما ، وأصبحت كأنَّها تطير في الأنفاس الباقية لهما ؛ فما تتقدَّمُ ، ولا تتأخر ؛ ولم تكن طيارةً تحملُهما ، بل جَناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله .

ثم اجترَّها الموتُ إلى غَوْرٍ[٢] ، فانحطَّتْ من الهواء جانحةً كالطَّائر يطلبُ ملجأً في العاصفة ، ثُمَّ انتهضتْ واثبةً ، وتمطَّرتْ منقلِبةً ، فاشتعلَتْ ، فاستعَرَت ، فأنضجتْ راكبَيْها ، رحمهما الله !

وكثيراً ما يكونُ منظرُ الحزن في الحياة هو انهماكَ الحياة في عملٍ جديدٍ تُبدعُ منه السُّرورَ ، والقوَّة . احترق البَطَلان لتتسلَّمَ مصرُ في نعشيهما رَماداً لن يُبْنَى تاريخُ العزَّةِ الوطنية إلا بهِ .

فاستجْنِحي يا مدافعَ مصر ! وطيري . إنَّ المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقيَّ .

* * *

صنعت النارُ الآدميَّةُ الحقيقة ، ووضعت لنا الاسمَ البديعَ الذي نُطلقُه على طيَّارينا الأبطال ، فلا تُسَمُّوهم نُسُورَ الجو ، ولكن سمُّوهم « جَمَراتِ الجوِّ » .

صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحتْ إلينا أن نستبدل من أنفسنا حالةً بحالةٍ ، وأن نُفاجئ شعورَنا الحالم ، فنصدمَه بآلام اليَقَظة المرَّة ، وأن نغيِّر قاعدةَ الحياة في التربية المصريَّة ، فلا تكون : العيشَ العيشَ ، ولكن القوَّةَ القوة .

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا : أنَّ الحياة إنْ هي إلا أداةٌ للحيِّ ، وليس الحيُّ أداةً للحياة ، فليتصرَّفْ بها على قوانين الرُّوح ، وآمالها ، فيسمُوَ ، وتسمو ، ولا يَدَعْها تتصرَّفُ على مذاهب أقدارِ المادَّة ، وتصاريفِها ، فيُذِلَّها ، وتُذِلَّه . وفي قانون الرُّوح : لا قيمةَ لعالَم الأشياءِ إلا كما تَصْلُحُ لنا ، وفي قانون المادَّة ،

(١) « اعتسفت » : اعتسف عن الطريق : سار فيه على غير هُدى .

(٢) « غور » : هو المنخفض من الأرض .

وضَغْطَةِ الحياة : كما تَصْلُحُ لنا ، وكما نصلُحُ لها . . .

بَلَى ! قد صنعت النَّارُ الآدميَّةُ الحقيقةَ ، وأعطتنا قصَّةَ الحرِّيَّة كاملةً في معنىً واحد : وهو : أنَّ هذه الحرِّيَّةَ لعاشقيها كأجمل الجميلاتِ للمتنافِسِينَ عليها : جمالُها متوحشٌ ، وخَلاَعتُها مُفْتَرِسةٌ ، وظَرْفُها سَفَّاكٌ للدَّم .

فاستجْنِحِي يا مدافعَ مصرَ ! وطيري . إنَّ المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقيَّ .

* * *

وإلى السَّماء يا « جمَراتِ الجوِّ » ، فإذا استويتم على السَّحاب ، فليست الطَّيارةُ ثَمَّ طيَّارةً ، بل حقيقةً حيَّةً عاملةً للمجد ، فلتحملْ معناها المصريَّ من بطَلها المصريِّ .

وإذا سبحتم في مَهْبِط القَدَر ؛ فليس الطيَّارُ ثمَّ طياراً ، بل حياةً عبقريةً ، أرسلتها مصرُ ، تستنزلُ للحياة أقداراً سعيدة .

وإذا خُضتم في المعْرَكِ الضَّنْكِ تتبعثَرُ فيه الآجالُ على الرِّياح ، فليس الجسمُ المصريُّ هناك من لحمٍ ، ودمٍ ، بل ناموساً طبيعاً ماضياً إلى غاية .

وإذا تَقاذَفتم في بحر الشَّمس ، فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيدِ أيَّامٍ مضيئةٍ تلتمعُ في تاريخ مصر .

وإذا نفذتم من أقطار السَّموات ، فانظروها بأعينكم معاليَ مصر ، وافهموها بقلوبكم ذاتيةَ الوطن المصريِّ تعلو ، وتعلو ، ولا تزال أبداً تعلو .

إنَّما الطَّيارةُ ، وسلاحُها ، وطيَّارُها تأليفٌ من الإنسانيَّةِ والعناصرِ ، معناه في العزيمة « لا بدَّ » . ومتى هَدَرَت الطَّيارةُ هَديرَها ؛ فإنما تقول للبطل منكم : هَلُمَّ من عالٍ إلى أعلى ، إلى أكثرَ علوّاً ، إلى أقصى حدودِ الواجب على النَّفس حين يأخذ الواجبُ الكلَّ ، وحين تعطي النَّفسُ الكلَّ .

فاستجْنحي يا مدافعَ مصر ! وطيري . إنَّ المجدَ يطلب منا إنسانَه البرقيَّ .

* * *